

ظاهرة التنبؤ في التراث العربي

مسلمة بن حبيب أنموذجا
من خلال تاريخ الطبري

ساسني بن محمد الضيفاوي

باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

ملخص الدراسة:

احتلّ مسيلمة مكانة بارزة في مدوّنة التاريخ العربي القديمة، وقد بدأ ذلك جليا من خلال تتبعنا لبعض المصادر، منها تاريخ الطبري (ت 310 هـ) وسيرة ابن هشام (ت 761 هـ) والبداية والنهاية لابن كثير (ت 774 هـ)، ويمكن أن نستشفّ أنّ الرجل ورد ذكره في العديد من المصادر بتفاوت في الكمّ وتباين في المضمون والمواقف، ولئن اختلفت المدوّنة فيما بينها، فإنّها اتفقت على الشأن البارز الذي احتلّه مسيلمة بن حبيب الحنفي. فما هي مضامين نبوّته؟ وهل برسالته ما به تميّز، أو أراد أن يشقّ طريقه داخل الإسلام وينخرط في دعوة محمّد، مثله مثل بقيّة المتنبّئين؟

بيد أنّنا، وإن أشرنا إلى هذه الملاحظات والأسئلة، فإنّ ما يهمننا فيها في هذه المرحلة من البحث هو ما يوجد فيها من مقاربات التي سقناها في هذا العمل، ليست سوى عينات محدودة ممّا تضمنته المصادر التراثية من معان متجانسة حيناً، ومتباينة أحياناً أخرى حول الضجّة الكبرى التي أحدثها مسيلمة.

مقدمة:

الإنسان مولع منذ وجد على وجه البسيطة باكتشاف الغيب ومعرفة كنهه وما يُخفيه المستقبل من أحداث، وقد ظهر من بين البشر في كلِّ عصر أناس ادَّعوا أن لهم القدرة الفائقة على التنبؤ بالغيب وقراءة المستقبل، وقد أصفى عليهم هذه القدرة مهابة واحتراما وتبجيلا بين الناس، بل قد أدنتهم هذه القدرة من مراتب الأنبياء وسلكتهم في عداد القديسين وأولياء الله الصالحين. وإذا رمنا بالدرس التراث الإنساني، فإننا نجد هذا التوجه والاهتمام بالتنبؤ ومعرفة الغيب عموما لدى الآشوريين والمصريين القدماء والكلدانيين، ونعتقد أن العرب مدينون لهم بهذا العلم، وكانوا يطلقون عليهم الصابئة. أما الإغريق، فكانوا لا يُقدمون على أمر من الأمور إلا بعد التماس النصيحة من الآلهة واستشارة الكهنة الذين كانوا يدَّعون التنبؤ بالغيب. ولايفوتنا في هذا المضمار أن نشير أن الكتاب المقدس ورد فيه الشيء الكثير من التنبؤات على السنة بعض الأنبياء من أمثال إرميا وحزقييل.

وكانت الكهانة شائعة عند العرب أيام الجاهلية وبعد البعثة المحمدية، بل إلى يومنا هذا إذ كانوا يطلقون لفظة "كاهن" على كلِّ من ادعى علم الغيب، أو تنبأ بشيء قبل وقوعه، وقد نبغ فيهم كثيرون، مثل شق بن أنمار بن نزار، وسطيح بن مازن بن غسان، وطريفة الكاهنة، وزبراء الكاهنة، والأشعث بن قيس الكندي في كندة، والأسود بن كعب العنسي باليمن، وسجاح بنت الحارث بن سويد في بني تميم، وطليحة بن خويلد في بني أسد، ومسلمة بن حبيب الحنفي باليمامة، وهو مدار بحثنا.

ولم يكن حظ فلاسفة المسلمين من هذه المسألة بقليل، بل إنهم أفاضوا الكلام في الرؤيا الصادقة، وجعلوا صلة قوية بين الرؤيا الصادقة والتنبؤ بالغيب استنادا على القول بأن الله يطلع عباده على غيبه، سواء أكانوا في يقظة أم في منام، ويبقى هذا العالم معقدا دوما في حاجة إلى الدرس والتمحيص والتمعن، لتفسير معمياته وحلِّ ألغازه ورموزه، والتوقف إزاء طلاسمه، رغم ما تسعفنا به المقاربات النفسية، مثل سيغموند فرويد (S.Freud 1856-1939) وكارل غوستاف يونغ (C.G.Young 1875-1961) وادموند هوسرل (Husserl 1859-1938) وأثار مرسيا ألياد (Mircea Eliade 1907-1986) ونحو ذلك.

وقد تخيرنا هذا الموضوع لدراسته والإدلاء برأينا فيه، واختيارنا لمسلمة بن حبيب الحنفي من خلال مصنف الطبري المسمى "تاريخ الرسل والملوك" أو "تاريخ الأمم والملوك" له عدّة أسباب:

أولها: أنّ مسلمة من أعلام التنبؤ البارزين في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ فالرجل عاش حقيقتين واحدة في حياة محمد وثانية بُعيدة، وقد أقلق المسلمين وأزعجهم وشكّل خطرا على الدعوة المحمدية، باعتباره حقق عددا من الانتصارات المهمة في الوقت الذي قويت فيه شوكة الإسلام والمسلمين، إذن ثمة تميّز للرجل، وتفوّق في التنبؤ، إلى درجة أنّه ملك قرآنا وأتباعا وأنصارا وخطا دينيا وسياسيا خاصا به تواصل حتى بعد وفاته.

ثانيها: نظرا إلى نقاط التشابه والالتقاء إلى حدّ التماهي والتشابك بينه وبين محمّد، إذ كلّ منهما يصنع نصّا لغويا متميّزا يمثّل عالمه اللغوي ومرجعيتّه الأساسية لكسب الأنصار وتشريع الأفكار، وإن بقي النصّ الأول وحافظ على ديمومته لعدّة اعتبارات، فإن قرآن مسيلمة والنصوص التي تركها المتنّبون عامة كثيرا ما تُرمى أو تُنعت بالرداءة، وبأنها دون مستوى الوحي أو القرآن، وهنا ثمة سؤال لا بدّ للباحث أن يواجهه، ماذا بقي لنا من نصوص هؤلاء وبالتحديد من قرآن مسيلمة؟ هل حفظت لنا المصنّفات القديمة، ومن بينها تاريخ الطبري جميع هذه النصوص، أو هي لم تحتفظ إلا بالنزر القليل، وهي عبارة عن شذرات رأى فيها المصنّفون القدامى مثال الرداءة؟

وهكذا، همّشت كتب التراث هذا المخزون التاريخي والديني والسياسي والثقافي، وطبّقت نهج الإقصاء والإبعاد، في حين ذكرت بعض الفرق الهامشية. فكيف رسم التراث التاريخي العربي الإسلامي صورة وملحا لمسيلمة؟ وماهي مكونات هذه الصورة؟ وماهي خلفياتها وأبعادها؟

ثالثها: أن التنبؤ ظاهرة مهمّة في التاريخ العربي الإسلامي، باعتبارها كانت محرّكا أساسيا لعدّة قضايا فكرية وسياسية ودينية خاصة.

رابعها: "أن نصوص الروايات تأثرت بحدث إدعاء النبوة، فشوهت صورة المتنبي خلقا وخلقا وأضافت روايات يغذيها الخيال الشعبي".¹

لهذه الاعتبارات وغيرها، رما درس شخصية مسيلمة في تاريخ الطبري، الذي يُعدّ من أهمّ الأعلام وأشهر المتنّبين توفي 12هـ الموافق 632م لذلك اخترنا العمل حوله، فهو شخصية على غاية من الأهمية اكتسبتها من علاقاتها وتأثيرها في محيطها وكسب أتباعها ومواقفها، وما شكّلتها من خطر هدد الدعوة المحمّدية، يضاف إلى ذلك دورها الفعّال في الحياة السياسية والاقتصادية والدينية.

ولعلّ الأمر الأهم في اختيارنا لهذا المتنّبي هو طمس كتب التراث ما اتصل بالرجل من أخبار وتعتيم الحقائق وتلفيقها، وفي المقابل حرصت هذه النصوص على تقديم محمّد في صورة تتناسب وما يدعونا إليه من فضائل وتفوّق وتعال، وكان من نتاج ذلك أن نشأ أدب كثير حول شخصية الرسول، اختلطت فيه الجوانب الدينية بالجوانب التاريخية، وأغلب الأحيان بالجوانب الخيالية، وهكذا تحوّلت شخصية الرسول أو النبيّ إلى مؤسسة لها دُعائها وحماتها ورموزها والناطقون باسمها. وقد خصصنا لسبر أغوار هذه الشخصية ومزيد الإمام بظروف حياتها وتنبئها واستقراء مشروعها وما حفّ به من أحداث وتطورات، كتاب " تاريخ الرسل والملوك " لأبي جعفر الطبري (ت310هـ) "وقد كان هذا التاريخ محلّ عناية كبيرة منذ الانتهاء من تدوينه،

¹ - السّلاميّ (صدق) المتنّبون في الإسلام المبكّر، مجلة الآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية القيروان، تونس، العدد7، 2006، ص 9

فحوته أغلب مكتبات الخلفاء والأمراء، وكان منطلقاً لأوجه عديدة من النشاط في التصنيف التاريخي تذييلاً وتلخيصاً وترجمة قديماً وحديثاً.²

ولهذه الأسباب، اخترنا هذا المصنّف دون غيره باعتباره يُمثّل أغنى مدوّنة في الرواية التاريخية تقريباً وأقربها إلى الموضوعية وتنوّع الأخبار، يقول في المقدّمة: "فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارنه، أو يستشنع سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهها في الصّحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أوتي من قبل بعض ناقله إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك نحو ما أدّى إلينا."³ وتمتاز هذه المدوّنة بأهمية المادة المتصلة بقصص المتنبيين وغازرة المرويات حول هذه الظاهرة، وسنتولى أمر تنبؤ مسيلمة بالدراسة والكشف، وتتبع الأخبار وتمحيصها وتدقيقها ومقارنتها، والكشف عن خفاياها وما حفّ بها من تساؤلات من مثيل:

بماذا نُفسّر إعلان نبوة مسيلمة في عهد محمّد وليس بعد وفاته، إذ كان بالإمكان أن يتلافى المواجهة ويترقّب وفاة النبيّ ثمّ يصدع بدعوته؟ هل أراد هذه المواجهة واختار هذا التحدي أم فرضت عليه الأمور ومجريات الأحداث فرضاً؟ بماذا نُفسّر نجاح دعوة مسيلمة وانتشارها، في الوقت الذي تبلورت فيه الدعوة المحمّدية وانتشرت، بل قد علّق عليها دُعائها بأنّها فُوبلت بالترحاب؟ هل نجاح دعوته في عهد محمّد دلالة على متانة مرجعيته ووجاهة مقاربتة وشغور المرجعية المحمّدية وقُصور الدّين الإسلاميّ؟ أليس مجرد ادّعاء النبوة في عهد محمّد يطرح إشكالات، خاصة وأنّ الرجل قد تقدّم في نشر دعوته وتبلورها؟ لماذا أغفلت مصنّفات التاريخ العربي الإسلامي والتراث عامة هذا التمشي والنجاح لمسيلمة، وإن ورد الحديث عنه في غاية الاختزال، في حين ذُكرت بعض الفرق الهامشية؟ كيف نُفسّر المسكوت عنه حول شخصية هذا المتنبيّ في كتب السير والحديث والتاريخ والفقّه والتفسير والتراث عامة؟

وإن ذكرته أغلب المصادر، مثل "تاريخ اليعقوبي" و"مروج الذهب" للمسعودي و"سيرة ابن هشام" وابن كثير في "البداية والنهاية" و"تاريخ الطبري" و"جامع البيان في تفسير القرآن" الذي فسّر "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْئٌ"⁴ بأنّها نزلت في مسيلمة ومن نحا نحوه من المتنبيين، فقد عمد أصحاب هذه المقاربات إلى تطويع النصّ وقده خدمة لأغراضهم وتوظيفاً لأهدافهم، خصوصاً التعالي بشخص محمّد، والتسامي بالنصّ القرآني، وتميّز السنّة الثقافية الإسلامية عموماً.

² - المسعودي (حمادي) فنيات قصص الأنبياء في التراث العربي، ط1، مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، 2007، ص 55

³ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك، تقديم محمد أبي الفضل إبراهيم وتحقيقه، ط3، دار سويدان، بيروت، لبنان، [د.ت.]، ج1،

ص 8

⁴ - الأنعام 93/6

أولاً: التعريف بمسيلمة

لقد عرفت الجزيرة العربية فُئيل قيام الدعوة المحمّدية حركة دينية واسعة النطاق أطلق على أصحابها اسم الحنفاء، ومن الحنفاء الذين تذكرهم كتب التاريخ: أمية بن أبي الصلت الثقفي، وهو من الطائف، وخالد بن سنان العبسي، وقد روي أن النبي سئل عنه فقال: "ذاك نبي أضاعه قومه"⁵، ومن هؤلاء أيضاً عمرو بن نفيل بن عمّ عمر بن الخطاب "وكان يرغب عن عبادة الأصنام، وعابها فأولع به عمّه الخطاب سفهاء مكّة وسلّطهم عليه، فأذوه فسكن كهفاً بحراء، وكان يدخل مكة سرّاً"⁶، تلك هي ظاهرة الحنفاء في غرب الجزيرة العربية والشام، حيث كانت توجد مراكز دينية مسيحية. أما في شرق الجزيرة، فقد عرفت قبيلة عبد القيس حركة دينية مماثلة، وقد ظهر فيها رثاب بن البراء الشني، وريان بن زيد بن عمرو، وقس بن ساعدة الأيادي الذي تحتفظ لنا المصادر التاريخية بحكايات وأخبار ونصوص عنه.

ومثلما عرف غرب الجزيرة العربية وشمالها وشرقها مراكز دينية متنوّعة، ورهبانا من النوع الذي ذكرنا، عرفت اليمن كذلك حركة دينية مماثلة، فظهر فيها أنبياء من هذا النوع، إذ تذكر كتب التاريخ أسماء عدد منهم أمثال: شعيب بن مههم ذي مههم، وعمرو بن الحجر الأزدي، وصالح بن الهيميسع، وحنظلة بن صفوان، وأسد أبو كرب الحميري، وطلحة الأسدي وسجاح، ومسيلمة وغيرهم، وقد تميزت اليمن في هذا المجال بانتشار اليهودية، ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن اليهودية في اليمن قد نضجت بفعل الاتصال والاحتكاك بالحبشة من جهة، وبالفرس من جهة أخرى، في هذا الإطار نشأت وترعرعت ظاهرة التنبؤ التي لم تكن شاذة أو غريبة عن هذا السياق التاريخي والحضاري والديني، لذلك بمجرد أن شاع خبر مرض محمّد، قام كهّان ومتنبئون في كل منطقة بالجزيرة العربية يدّعون النبوة ويقودون قبائلهم للغزو تقليداً للدعوة المحمّدية، ومن هؤلاء مسيلمة، صغر اسمه فصار مُسيلمة تحقيراً لشأنه، ونُعت بالكذاب بسبب ادعائه النبوة، يذكر اليعقوبي أنه أسلم لكنه ادعى النبوة في السنة العاشرة هجرية؛ أي قبل وفاة النبي بسنة، وبسبب هذا التنبؤ نُعت بالكذاب، متنبئ الإمامة ومنتزِع ثورة بني حنيفة على دولة المدينة، تسمّى "الرحمان" فأطلق عليه "رحمان الإمامة".

أ- نسبه ونشأته:

ذهب ابن هشام إلى أنه "مسلمة بن ثمامة، ويكنى بأبي ثمامة"⁷، وورد في "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" لجواد علي تعريف لمسيلمة أكثر إيغالا في النسب: "مسلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث

⁵- ابن كثير (إسماعيل بن عمر) البداية والنهاية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، [د.ت]، ج2، ص 226

⁶- المسعودي (أبو الحسن علي بن حسين) مروج الذهب، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، ط4، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر 1964، ج1، ص 70

⁷- ابن هشام (أبو محمّد عبد الملك) السيرة النبوية، قدّم لها وعلق عليها طه عبد الرؤوف سعد، ط1، دار الجليل، بيروت، لبنان، [د.ت]، ج4، ص 164

بن عبد الحارث بن صفان بن ذهل بن الدول بن حنيفة"⁸، وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن حنيفة مثلت أمام النبيّ وعلى رأسها هارون ابن حبيب المعروف بمسيلمة، وقد ظهر على مسرح الأحداث عام 11هـ /633م في الوقت الذي ادعى النبوة فيه الأسود العنسي وطلحة بن خويلد، فتبعه قسم كبير من حنيفة بإيعاز زعيمهم الرّجال بن عنفة؛ فقد أذاع الرّجال بين الناس أنّه سمع النبيّ في المدينة يقول: إنّ مسيلمة صاحبه وخليفته، وقد ظلت كثرة حنيفة موالية له حتى في عهد الخليفة أبي بكر.⁹

اجتمع بنو حنيفة تحت راية نبيّ لهم ذكرته الأخبار العربية باسم مسيلمة بن حبيب الحنفي، وكان قد أدى أعظم مقاومة للإسلام والمسلمين، فوحد صفوفه، وعقد حلفاً دينياً دنوبياً مع سجاح، وقد كانت أمّها تنسب إلى تغلب القبيلة النصرانية، وهي امرأة نصرانية فيما رواها، ادعت النبوة وتعاطت العرافة فتبعها تميم، ثم تزوج منها وسار في ما يقال بأربعين ألف مقاتل، فانتصر على جيشين من جيوش المسلمين، "فقد كان أبو بكر قد وجّه كلاً من عكرمة ابن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة لمحاربة بني حنيفة، لكنهما لم يستطيعا التغلب عليها"¹⁰.

ويبدو أنّ مسيلمة كان قد ادعى النبوة فعلاً قبل مرض النبيّ، إذ تذكر المصادر التاريخية أنه قدم في وفد بني حنيفة إلى المدينة عام الوفود، وأفاد أنّ النبيّ سيقاسمه أو يجعل له الأمر من بعده، ففي البخاري عن ابن عباس أنه قال: "قدم مسيلمة الكذاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول: إن جعل لي محمدّ أمراً من بعده تبعته، وقدمها [المدينة] في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده قطعة حديد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه [وفي رواية أخرى بادره مسيلمة بالكلام فقال: إن خليت بيننا وبين الأمر ثم جعلته لنا] فقال: { النبي } لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها ولن تعدوا أمر الله فيك، ولن أردت، ليعقرنك الله، وإنّي لأراك الذي أريت فيه ما رأيت"¹¹، وهو يُشير بذلك إلى ما رآه في المنام، أن صاحب صنعاء وصاحب اليمامة؛ أي العنسي ومسيلمة كذابان.

وتذكر كتب التاريخ الإسلامي أن هذا المنتبئ كان على شأن عظيم في اليمن أثناء حياة محمد، وقد وجدت دعوته امتداداً كبيراً، واستطاع أن يجلب إليه أناساً كثيراً سوف يكون لهم بزعامته تأثير قوي في تحريك الأحداث بعد وفاة محمد مباشرة أثناء حروب الردّة في خلافة أبي بكر، غير أن هذا المنتبئ كان من المناهضين للدعوة المحمّدية والدين الجديد الطارئ، رغم دخول عمّال محمد اليمن وحضر موت ونجران وصنعاء واليمامة، ونشرهم الإسلام في هذه المدن والقرى، إلا أنّ الرجل استطاع أن يتغلب عليهم، وأن يهزمهم بما توفر

⁸ - علي (جواد) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ومكتبة النهضة، بغداد، 1978، ج6، ص 86

⁹ - دائرة المعارف الإسلامية، ج8، ص ص 131-132

¹⁰ - ابن الأثير (عزّ الدين) الكامل في التاريخ، ط1، مطبعة القاهرة، مصر، 1885، ج2، ص 136

¹¹ - البخاري (محمد بن إسماعيل) صحيح البخاري، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، [د.ت]، ج6، ص ص 3-5

لديه من قوة بأس ورباطة جأش واستماتة على المبدأ وكسب أنصار وفصاحة لسان وبلاغة بيان وحوافز نفسية ومادية وقناعات جريئة فكرية وعقدية وتشريعية.

ب- قبيلته:

إن انتماء مسلمة إلى بني حنيفة كان له أثره في تشكيل نهج هذا الرجل ومسيرته السياسية والدينية؛ فحنيفة تاريخيا كانت تسكن منطقة الحجاز وغادرها عقب حرب البسوس في منتصف القرن السادس الميلادي، ودورها فيما عُرف بحروب الردّة مشهور "قد قاتلوا المسلمين قتالا مريرا حتى ان عكرمة بن أبي جهل رغم جسارته وقرشيته انهزم أمامهم هزيمة منكرة"¹²، وهذا الدفاع المستميت والقتال من جانب بني حنيفة للمسلمين له أسباب اقتصادية ودينية واجتماعية.

ومفاد هذه الأبعاد الدينية والاقتصادية والاجتماعية، أنها لوّنت مشروع مسلمة وأثرت في منهجه وكانت من اللبّات الأساسية في تشكيل نبوّته، لقد امتدت الحركة الارتدادية هذه بمكوّناتها السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية من البحرين و عمان على طول ساحل الخليج العربي من الشرق إلى الجنوب الشرقي، ومن هناك إلى حضرموت واليمن في الجنوب، ثم من هناك إلى اليمامة، هذا الفضاء الواسع جغرافيا يُعبّر بوضوح عن عمق الرفض والتمرد، وقد شمل معنى الارتداد عن الطاعة للنظام الضرائبي المتمثّل في الالتزام بدفع الزكاة، كما شمل معنى الارتداد عن التدين بالإسلام في ظل ديانات متعددة، كما شمل معنى الارتداد السياسي ضدّ توسع محمّد وأصحابه لإيمان أهل اليمن وقبائل متعددة بأنهم أعرق وأشرف من قريش، والتنافس بينهما على أشده من أجل الزعامة والسيادة.

فما هي مضامين نبوّته؟ وهل برسالته ما به تميّز أم أراد أن يشقّ طريقه داخل الإسلام وينخرط في دعوة محمّد مثله مثل بقية المتنبيين؟

ثانيا: مسلمة متنبّئا

لئن انفرد الله وحده بعلم الغيب واستأثر به دون سواه، فهذا ليس معناه حرمان البشر كافة من القدرة على معرفة الغيب، بل إنّ الله يهب لمن يشاء من عباده معرفة الغيب، أو هي قدرة يجعلها في صفوة البشر "فحينما يواجه الإنسان قُوى تتعدّى قدرته، عادة ما يُحيلها إلى منظومة خارقة، لكنّه يتمكن من السيطرة عليها وذلك بإيجاد تفاسير لها"¹³.

¹² - هيكلم (محمد حسين) في الصديق أبو بكر، ط7، دار المعارف بمصر، [دبت] ص 75

¹³ - Gauchet Marcel, *le Désenchantement du monde*, Une histoire politique de la religion, Editions Cérès, 1995, p. 11

فقد تتوفر الإمكانات المادية والعقلية والظروف النفسية والمكانية والزمانية ما بها يتسنى للإنسان أن يتوصل إلى قبض الغيب ومعانقة المطلق ومعرفة كنهه، وقد يصل بعض الناس إلى مرتبة تدنو من مرتبة الأنبياء، فينكشف عنهم الحجاب ويدركون شيئاً أو أشياء من علم الغيب، وعلى هذا جاز اعتبار مسيلمة متنبئاً قد يكون صادقاً كما يمكن أن يكون كاذباً، وجاز أن يصل إلى تشكيل نصّ أو قرآن أو تواصل مع مُتعال، وقد رمنا في هذا المبحث أن نتتبع بعضاً من قرآن مسيلمة، وهو عبارة عن شذارات مبنوثة في جملة من المصادر التاريخية والتراثية نذكر منها: ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الخزرجي "مقامع الصلبان"، الخطابي "رسالة في بيان اعجاز القرآن"، الكلاعي البننسي "تاريخ الردّة"، أحمد بن أعمم الكوفي "الفتوح"، ابن كثير "البداية والنهاية"، الجاحظ "البيان والتبيين"، الطبري "تاريخ الرسل والملوك"، ونحوها. وسنتناول بالتحليل عدداً من النصوص، وهي نماذج من قرآنه، وسنقف بصورة خاصة على مرويات الطبري من خلال تاريخه، وسنرصد ما في هذه النصوص من أبعاد عقديّة، مثل التوحيد والآخرة والحساب والوحي، وطقسية مثل الصلاة والشهادة والصوم.

المضامين الدينية / البعد العقدي.

أ- التوحيد:

كانت قريش حين سمعت بسم الله الرحمان الرحيم، قال قائلهم: **دُفّ فوك**، إنما تذكر مسيلمة، رحمان اليمامة. وذكروا أنه دعا إلى الرحمان؛ أي إلى عبادة الرحمان، بينما عرّف نفسه بالرحمان، فقليل له رحمان اليمامة، وأنه دعا إلى عبادته هذه قبيل النبوة، وقد عرف أمره بمكة، فلما نزل الوحي على الرسول، قال أهل مكة: **إنما قد أخذ علمه من رحمان اليمامة**.¹⁴

يُحيلنا هذا النصّ على جملة من الحقائق منها:

أولها، السبق التاريخي لمسيلمة في دعوته إلى التوحيد قبيل محمّد وقبل نزول الوحي عليه، وإن تنبؤ مسيلمة كان إذن قبيل بعثة محمّد؛ فقريش تسمع بمسيلمة وبنبوته وما تقوم عليه من ركائز أبرزها النداء إلى عبادة الرحمان، فقد عرف أمره بمكة.

ثانيها، ما ذهب إليه أهل مكة من أن ما نزل على محمّد من وحي مصدره رحمان اليمامة، فالرجل إذن لم يدع إلى ديانة أخرى، مثل اليهودية أو المسيحية أو المنوية أو المجوسية أو الوثنية، بل كان موحداً منذ أن ادّعى

¹⁴ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص 86

بأنه الرحمان، ولعلّه تأثر بدعوة المتقدمين له ممن كان قبله على ما يظهر على غرار الأحناف مثلاً. وقد ذكر الطبري أن مسيلمة "ضرب حرماً باليمامة، فنهى عنه، وأخذ الناس به، فكان محرماً"¹⁵

ب- الوحي:

أورد الطبري أن مسيلمة يتلقى الوحي من السماء عن طريق جبريل، ذلك أنه لما اشتد العداء على اليمن، وأهل اليمامة بالتحديد من عمال دين محمد، وكثر منهم ذلك فسألوا مسيلمة فقال: "أنتظر الذي يأتيني من السماء فيكم وفيهم"¹⁶. في حين يذكر في مرويات أخرى أنه يتلقى ما يتلقاه من شيطانه، فمسيلمة يرفض مواجهة خالد بن الوليد لأن شيطانه ينهاه¹⁷. ونبي الإسلام قال: "إن مع مسيلمة شيطاناً لا يعصيه، فإذا اعتراه أزيد كأن شذقيه زبيبتان. لا يهّم بخير أبداً إلا صرفه عنه، فإذا رأيت منه عورة فلا تقبلوه العثرة"¹⁸.

وذكر الطبري أيضاً أن طلحة النمري جاء إلى اليمامة، وأراد الاجتماع بمسيلمة واختبار نبوته، فلما جاءه قال له: "أنت مسيلمة؟ قال: نعم، قال: من يأتيك؟ قال: رحمان. قال: أفي نور أو في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنك كذاب، وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر."¹⁹

ونفهم من هذه المرويات تضاربيها وتناقضها، فتارة مصدر الوحي الشيطان، وأخرى الرحمان، وأخرى السماء أو جبريل، ولعل ذلك يدل على أن هذه الأخبار أساسها الرواية الشفهية وتعدد القصص وناقلو الخبر، ثم أن هذه المرويات قد تكون تأثرت بما سبقها من معتقدات، مثل المجوسية التي تقوم على ثنائية النور والظلمة؛ فالأول يرمز إلى الخير والثاني إلى الشر، لذلك نعت بأنه كذاب، لأن الرحمان يأتيه في الظلمة، ثم أفاد النص الأخير النعرة القبليّة إلى درجة التعصب، لذلك وإن كان كذاباً فله الولاء وفاءً للقبيلة. ويبدو أن مسيلمة في طريقة تقبله للوحي يتأسى بأسلوب محمد²⁰.

ج- الإيمان بالأخرة والحساب:

كان فيما يقرأ لهم: "لما رأيت وجوههم حسنت، وأبشارهم صفت، وأيديهم طفلت، قلت لهم: لا النساء تآتون، ولا الخمر تشربون، ولكنكم معشر أبرار، تصومون يوماً، وتكفون يوماً، فسبحان الله! إذا جاءت

¹⁵- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 283

¹⁶- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 283

¹⁷- نفسه، ج3، ص 293

¹⁸- نفسه، ج3، ص 293

¹⁹- نفسه، ج3، ص 296

²⁰- De William f Campbell, *Le coran et la bible à la lumière de l'histoire et de la science*, Editions Farel, Marne la Vallée .France,1994,p.155

الحياة كيف تحيون، وإلى ملك السماء ترقون ! فلو أنها حبة خردل، لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور، ولأكثر الناس فيها الثبور.²¹

ونستخلص من النص أن مسleme يثبت البعث والرجوع إلى الخالق والحساب الدقيق، حتى على حبة خردل، بقي كيف يُحاسب؟ ومتى يُحاسب؟ وكيف يُبعث جسدا أم روحا؟ أم الاثنين معا؟ هذا ما لا نجد له إجابة، وبين مسleme أن الله يراقب الإنسان لما يأتيه من أفعال ويحاسبه عليها، وأن الجزاء من جنس العمل مهما كان بسيطا والله شاهد عليم بما في الصدور.

البعد الطقوسى / الصلاة والصوم وقيام الليل:

قال مسleme: "سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذ طمع، ولا زال أمره في كل ما سر نفسه يجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشته خلاكم، ويوم دينه أنجاكم، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقياء ولا فجار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربكم الكبار، رب الغيوم والأمطار".²²

أقرّ الرجل من خلال هذا النصّ جملة من الطقوس والعبادات، منها الصلاة والصوم وقيام الليل والإقرار بوجود الله وقدرته على إغداق النعم والخيرات، وهو مصدرها الأول، باعتباره ربّ الغيوم والأمطار. ولئن ذكر الصلاة، فإنها كانت بصورة إجمالية دون تفصيل لمكوناتها وأوقاتها، وشروطها وأحكامها، وقد أخذ الرجل مؤذنا يدعى عبد الله بن النّواحة "وكان الذي يُقيم له، حجير بن عمير الذي كان ينادي قاتلا: أشهد أنّ مسleme رسول الله".²³

وقلّص في عدد الصلوات من خمس إلى ثلاث بحذف صلاتي الفجر والعشاء مهرا لسجاح.²⁴

فقد جاء في تاريخ الطبري "أنّ مسleme بن حبيب رسول الله، قد وضع عنكم صلاتين مما آتاكم به محمّد، صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر".²⁵

وربط كذلك عبادة الصلاة بقيام الليل والتفرغ إلى التضرّع والدعاء. أمّا الصوم وإن كان ركنا من الأركان التي أشار إليها ومقوما من مقومات دعوته وذاك ليس غريبا، باعتبار أن الصوم عبادة قديمة عرفت في الأمم السابقة، وإن لم يكن واضحا مثله مثل الصلاة من حيث الكيفية، والمدة الزمنية، وطرائقه، فإنه يبدو أنه يقوم أساسا على الأريحية، والتخفيف عن الإنسان، وكذلك على التناوب والتعاقب اليومي، وإن بدا متناقضا أحيانا

²¹- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 272

²²- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 272

²³- Philip khùri hitti , **The origins of the Islamic state**, Published by Khayats, Beirut, Lebanon, 1966, p. 138

²⁴- Pour en savoir plus, voir : **The origins of the Islamic state**, p. 151

سجاح بنت الحارث بن سويد ادعت الكهانة والنبوة، تزوجت مسleme، ويُقال إنها أسلمت في نهاية عمرها وهاجرت إلى البصرة.

²⁵- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 274

بين إثبات الصوم وقيام الليل "يقومون الليل ويصومون النهار"²⁶ وطورا بالدعوة إلى التناوب فيه بغية التيسير والتخفيف عن الأدمي "تصومون يوما، وتكفون يوما"²⁷.

وقد يكون مرد ذلك إلى الوضّاع والتحرّيف في نقل المرويات الذي طال النصوص الأخرى، مثل الأحاديث النبوية، وأن السمة الغالبة في نقل المرويات والأخبار هي الرواية مشافهة.

ونلمس من خلال نصوص مسيلمة وآياته، جانباً يخصّ الطقوس والعبادات، وجانباً يتصلّ بالبعد العقدي، ولئن كانت هذه الطقوس والعبادات غير مجانية لما جاء به نبيّ الإسلام، فإننا نجد أحيانا تختلف عنها اختلافا جذريا بغية التميّز والتخفيف عن أتباعه وبناء دين جديد، يتباين مع دعوات المتنبيين الآخرين خاصة، ولعلّ ذلك مردّه تأثره بالأوضاع الداخليّة في اليمن نظرا إلى ما عرفته من عقائد وديانات، مثل الوثنية واليهودية والمسيحية والمجوسية والحنيفية، فتلّونت دعوته بهذا الزخم الديني.

ولئن أقرّ بالشهادة من خلال الأذان والإقامة، وأمر بالصلاة والصوم، فإنه تجاوز الحج والزكاة، وسكوته عنهما يفسّر من عدة وجوه، منها جراءة الرجل على تخفيف بعض الأركان الأساسية، مثل الصلاة والصوم، وذكر اسمه في الأذان. أمّا سكوته عن الزكاة، فلعلّه يعود إلى أسباب مبدئية واقتصادية، فاليمن منطقة خصبة فلاحيا ممطرة، تُعدّ هدفا للأطماع واستغلال خيراتها، لذلك رفض هذه الضريبة، ودعا إلى عدم الالتزام بها أخذاً وعطاء، ولا ننسى أن ركن الزكاة كان المحرك لأسباب سياسية ودينية واجتماعية تمثّلت في الارتداد.

وأما الحجّ، فإنّ الصراع القائم تاريخيا ودينيا وسياسيا بين مكّة واليمن، باعتبار أنّ كلّ واحدة ترى أنها قبلة الحجّ ومنارة الطواف، لذلك تعدّدت البيوت، فلعلّ هذا يرتبط كذلك ارتباطا وثيقا بالمنحى التجاري والاقتصادي، باعتبار أن الحجّ يُعدّ محركا تجاريا واجتماعيا، فتكون اليمن مدار هذا الحراك عوضا عن مكّة.

وإذا كانت هذه المضامين الدينية بعضا من دعوة مسيلمة. فكيف تقبلها محمّد وأتباعه؟ وماهي ردود فعله إزاءها؟ وكيف تعامل المسلمون مع هذا الوضع؟

ثالثا - مسيلمة ومحمّد:

أ- موقف محمّد من مسيلمة:

في حديث رواه البخاري بطرق متعددة، وبعبارات متقاربة أن النبيّ قال: **بينما أنا نائم أتيت بخرائن الأرض فوضع في كفي سواران من ذهب فكبرا عليّ (وفي رواية أخرى: ففطعتهما وكرهتهما، وفي ثالثة:**

²⁶ - نفسه، ج3، ص 272

²⁷ - نفسه، ج3، ص 272

فقالا: نقول كما قال، فقال: أما والله لو لا ان الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما. ثم كتب إلى مسيلمة: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين³³.

إن هذا النص رغم إيجازه يُحيل على جملة من القرارات تتمثل في رفض نبوة مسيلمة رفضا قطعيا وبعته بالكذاب، وتحقير شأنه باستعمال صيغة التصغير، وهي رسالة تقوم على معجم ديني، فهي لا تعدو أن تكون اقتباسا من القرآن، فعبارة: "إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده"،³⁴ وقوله: "سلام على من اتبع الهدى" لا يختلف كثيرا عما جاء في النص القرآني.³⁵

وبيّنت رسالة محمد لمسيلمة أنّ النبوة ليست قاسما مشتركا بين كلّ الناس، وليست إرثا ولا مطلبا يُطلب وإنما هي اصطفاء إلهي، وتكليف سمويّ، ونعمة ربانية، يهبها الله لمن يشاء من عباده المؤمنين الصالحين، شأنها شأن الأرض، وهي في النص ملك لله يتصرف فيها كما يشاء ويورثها لمن يريد من عباده.

ب- موقف مسيلمة من محمد:

لعلّ ندرة النصوص والمرويات في هذا المجال، سواء كان ذلك لأسباب مبدئية بين الرجلين، أو وقع تخيبيها طمسا للحقيقة والبيان، يعدّ عائقا محوريا في بيان موقف كلّ منهما، ومن هذه النصوص نعثر على الرسالة التالية: "من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله. سلام عليك، فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قریشا قوم يعتدون".³⁶

ونفهم من النص كيف أنّ مسيلمة يعترف بنبوة محمد، ويصف مشروعه مُبينا خصوصياته، إذ يقوم على المقاسمة والمناصفة في الحكم والنبوة والنفوذ، إلا أن هذا الاعتراف بنبوة محمد مشروط بقبول المناصفة والاعتراف به. ويمكن أن نستشفّ من النص، أنه لئن كانت النبوة لفائدة مسيلمة، وهي حقه الذاتي (فإني قد أشركت) فإن الأرض هي مناصفة بين المكّيين والمدنيّين من جهة، وأهل اليمن من جهة ثانية (ولنا نصف الأرض)، فالنبوة فردية، والملكية جماعية، استجابة لقومه وانتصارا لأهله، وقد نخلص من ذلك بعدا توسعيا يكون تدريجيا ألم يقل لسجاح مثلا: "هل لك أن أتزوجك فأكل بقومي وقومك العرب! قالت: نعم".³⁷

ونتبيّن من خلال رسالة مسيلمة، أنّ صاحبها لا يرى ضيرا في وجود نبيّين اثنين في الزمن نفسه، كلّ منهما ينهض بالدعوة في فضاء جغرافي يتم ضبطه بعد حصول اتفاق بين النبيّين أو الرسولين.

³³- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 146 و 115، Le coran et la bible,

³⁴- الأعراف 128/7

³⁵- طه 47/20

³⁶- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 146

³⁷- نفسه، ج3، ص 273

ولم نجد في الأخبار المتعلقة بمسيلمة خبرا يفيد صراحة أنّ الرجل كان قد اعتنق الإسلام ودخل فيه؛ فالأخبار أو المرويات التي تتحدث عن مجيئه إلى يثرب لا تشير إلى ذلك، والأخبار التي تتحدث عنه، وهو في الإمامة لا تفيد قبوله الإسلام كذلك، بل نجد فيها كلّها أنّه ظلّ يرى نفسه نبيا مرسلًا من الرحمان، وصاحب رسالة، إلا أنّ قريشا قوم يعتدون.

والظاهر أنّ أخبار التنبؤ الغامضة هي التي وصلت إلينا دون التنبؤات الواضحة، والواقع أنّ هناك نبوءات صادقة كثيرة قدمت لأفراد كثيرين، ولكن لم يهتم أحد بتسجيل هذه النبوءات الشخصية، وحال المسلمين، مثل بقيّة الأمم في موقفها من ظاهرة التنبؤ، فلئن ذهب البعض إلى قبولها دون تحرّ، ذهب شقّ إلى قبولها باحتراز، في حين رفضها شقّ آخر رفضا قطعيا، ونبوءة مسيلمة لا تخرج عن هذا المدار بين القبول والاحتراز والرفض المطلق.

وقد صوّرت المرويات تصويرا حقيرا مُحطًا، مقابل استعلاء قيمة محمّد ومنزلته وعلوّه، باعتباره يعتمد على الوحي ويقوم على الاصطفاء والعون من المتعالي، لذلك ميّز الطبري أو بالأحرى الرواة الذين أخذ عنهم بين محمّد ومسيلمة، فأفشلوا الثاني وانتصروا لمحمّد من خلال ما يأتيه من كرامات ومعجزات، قال ثمامة بن مالك لمسيلمة لما ادعى الشركة في النبوة:

مسيلمة ارجع ولا تمحك	فإنك في الأمر لم تشرك
كذبت على الله في وحيه	هواك هوى الأحقق الأنوك
فما في السماء لك من مصعد	ومالك في الأرض من مبرك ³⁸

وإذا صوّرت كتب التاريخ والمرويات والأخبار مسيلمة تصويرا سلبيًا، وشوّهته وهمّشته، فهل معنى ذلك أن الرجل لم يُضف شيئا، ولم يبن لبنة جديدة في صرح الحضارة الإنسانية؟ فما هي انتصاراته؟ وما هي هزائمه؟ وكيف كانت نهاية الرجل؟

رابعا: نهاية مسيلمة

كأنّ الإسلام وما حفّ به من قوّة سيف، هو وسيلة فرضت على بني حنيفة سلطان قريش وقرآن محمّد، فهم لئن قبلوا به، فإنّ ذلك يعود إلى رغبتهم الملحة في التخلّص من برائن الاستعمار، خصوصا المدّ الفارسي، ثم أن يستقلّوا عن السلطة المركزية بالمدينة، زد على ذلك الفراغ الذي تركه مسيلمة بعد مقتله، باعتبار ظهوره على ساحة الأحداث كان عاملا مهمّا في التثبيت بالتمرد والمقاومة وعدم الخنوع، ناهيك أنّ الرجل في حياته حقق

³⁸ - المقدسي (المطهر بن طاهر) كتاب البدء والتاريخ، تحقيق كلّمان هوار، دار صادر، بيروت، لبنان، 1903، ج5، ص 163

عددا من الانتصارات والمغانم، سواء كانت دينية أو اجتماعية أو عسكرية أو سياسية، أحدث بها ضجة كبرى في الأوساط العربية والإسلامية، وكانت خطرا هدد الإسلام والمسلمين، وإن لم تخل من الإحباط والفشل والهزائم، شأنها شأن كل عمل بشري.

فما هي مظاهر انتصارات مسيلمة؟ وهل كانت فعلا منعرجا حاسما إلى درجة التأثير في الدعوة الإسلامية وأوجه الحياة العربية عامة؟ وماهي هزائم الرجل ومظاهر فشله؟

انتصاراته:

أ- مغانم دينية واجتماعية

كان فيما يقرأه مسيلمة: "إن بني تميم قوم طهر لقاح، لا مكروه عليهم ولا إثارة، نجاورهم ما حيننا بإحسان، نمنعهم من كل إنسان، فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمان".³⁹

ينتزل هذا النص في إطار التشريع الأخلاقي والسلوكي والمعاملات مع الآخر، من حسن جوار، وأخذ وعطاء، وتعاون وتعاهد وتعاهد على جملة من القيم العربية والبدوية، مثل الصفاء والطهارة والوفاء والوفاق، تعاون دون ضغط ولا مكروه، ولا ضريبة مالية، بل حسن جيرة قوامها الإحسان والتعهد بما فيه من حماية ودمائة في التواصل.

لقد حاول مسيلمة أن يثمن من خلال هذه الآيات جملة من الأبعاد الدينية والاجتماعية والحضارية، تكون نبراسا على ضوئها يعيش اليمينيون والإنسان عامة. ومما نزل عليه: "والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثارذات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضلتكم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه والمعترّ فأووه، والباغي فناونوه".⁴⁰

يوصل مسيلمة في هذا النص تأسيس عدد من قيم البداوة ومثل العروبة التي تجسد شهامة العربي وفتوته وشجاعته، وهي تتمثل في إنجاز مؤونته، وتحقيق غذائه بالتعويل على إمكاناته الذاتية، فكان لزاما أن يتحمل مسؤوليته كاملة، كما بيّن مدى تعصب الإنسان إلى مسقطه، فتميّز الناس بدوا وحضرا، وكأنه يحيي التوالف القبلي دفاعا عن حاجاتهم وأنسابهم ومحارمهم ومحصولاتهم، ويحتّمهم على إغاثة المظلوم ومناوأة الظالم ومقاومته تارة بالفطنة والذكاء، وطورا بالقوة والدهاء.

³⁹- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص ص 283-284

⁴⁰- نفسه، ج3، ص 284

ومن جملة ما قاله لسجاح في حوار دار بينهما حول ما أوحى إليه قال: "أن الله خلق للنساء أفرجا، وجعل الرجال لهنّ أزواجا، فنولج فيهنّ قعسا إيلجا، ثم نخرجها إذا نشاء إخراجا، فينتجن لنا سخالا إنتاجا" قالت: أشهد أنك نبيّ.⁴¹

يُحيلنا هذا النصّ إلى جملة من التشريعات التي تتصل بتكوين الأسرة، والتقارب بين الجنسين، وإباحة المتعة الجنسية والتناسل لعمارة الكون، باعتبار أن الأسرة هي النواة الأساسية في بناء المجتمع وتشكيله، كما يثبت النصّ جملة من الأطوار قد تتجاوز إرادة الإنسان، مثل مراحل تكوين الجنين في أحشاء أمّه، وعملية الخلق، وطفوس التوالد والتناسل، وطفرة المتعة.

وهو ما نجد صداه في النصّ القرآني الذي يؤكد المنحى الاجتماعي وتكوين الأسرة، وتربية النشء والتمتع بالمرأة إلى درجة أنه قال: "نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ"⁴²، هذا من ناحية، ومن جهة أخرى، فإن هذه التشريعات والطقوس ما اتصل منها بمحمد وبمسليمة كانت منتشرة عند العرب الجاهليين، وفي اليهودية والمسيحية، فما توصّلا إليه هو نتاج وخليط لتأثر الرجلين بجملة من المؤثرات المجوسية، والمسيحية، واليهودية، وديانات جاهلية، وخصائص الثقافة العربية عموماً.

إلا أن الذي يُثير الانتباه والريبة ويدعونا إلى النظر، ما ذكره الطبري في مواضع أخرى من مرويات متضاربة نسبت لمسيلمة، ومما قاله: "لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى" وزاد الطبري "ووضع عنهم الصلاة وأحلّ لهم الخمر والزنا ونحو ذلك"⁴³، وقد أورد في مواضع أخرى تحريم الخمر والنساء "لا النساء تأتون، ولا الخمر تشربون"⁴⁴، بل ذهب مسيلمة حسب مرويات الطبري في أحيان أخرى، إلى الالتزام في النسل بمولود واحد شريطة أن يكون ذكراً "إنّ من أصاب ولدا واحدا عقبا، لا يأتي امرأة إلى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد، حتى يصيب ابنا ثم يمسك، فكان قد حرم النساء على من له ولد ذكر"⁴⁵.

فهذا التناقض في مرويات الطبري لا نجد له مبرراً، ولم يخبرنا من أين استقى بعض المرويات والأخبار؟ ولا ندري بأي وجه من الوجوه استفاد ذلك؟ فتارة يحرم الخمر وطورا يُبيحها، ومرّة يُجيز النساء ويحلّ المتعة، وأخرى يحرم النساء والزنا، وأحيانا يؤكد ضرورة التناسل، وأخرى يحدّد جنس المولود وأن يكون واحدا لا غير.

⁴¹- نفسه، ج3، ص 273

⁴²- البقرة 223/2

⁴³- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص 138

⁴⁴- نفسه، ج3، ص 272

⁴⁵- نفسه، ج3، ص ص 272-273

لقد اتسمت نصوص مسيلمة بالتشتت والتناقض والتباين في المصادر والمراجع، بل أحيانا في المصدر الواحد، مثل تاريخ الطبري، ورغم تشتتها فهي ليست على صورة واحدة، بل هي متفاوتة زيادة ونقصانا إلى حدّ التضارب أحيانا، وهذا ما يُفسّر تشويها وتحييفا، ووضعها في أغلب المصنّفات التقليدية التي تتحدّث عن حركة مسيلمة الحنفي، فأخرجتها من سياقها التاريخي وشوّهت أخباره ومروياته وأبعدته "عن أي موهبة كالخطابة والشعر والسجع والكهانة والنسابة، مع أنّه قاد أخطر حركة واجهت المسلمين في صدر الإسلام".⁴⁶

لقد استطاع مسيلمة أن يعبّد طريقه، وأن يحقّق نجاحات دينية وانتصارات اجتماعية، وقد بدا ذلك من خلال ما سنّه من تشريعات وقوانين منها ما يتصل بالاجتماع، ومنها ما يتصل بالسلوك، ومنها ما يتصل بالغيب وقدرة الله والتوحيد والبعث والحساب، والتخفيف في عدد الصلوات والتيسير في الصوم، وتجاوز شعيرة الحج تيسيرا على الإنسان، كما أباح الزنا والخمر والتناسل وتكوين الأسرة، باعتبارها أسّ المجتمع، فكانت بذلك تجربته ذات صلة بالمجتمع الذي ظهرت فيه يقول الطبري: "وكان مسيلمة يصانع كل أحد ويتألفه، ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح".⁴⁷

هذه الانتصارات التي حقّقها مسيلمة عسكرية ودينية واجتماعية وسياسية من خلالها سجّل اسمه في التاريخ البشري، ودوّن مناه الفكري والحضاري، واسترجع الأراضي والأموال والممتلكات، وكان له انتصار في بعض المعارك التي اشتد فيها الاقتتال، ورفض رفضا قطعيا أن يدعن ويستسلم، ويقبل بقرارات محمّد ومن معه فيما يتصل بالتوسع جغرافيا وفرض الهيمنة سياسيا، أو فيما يتصل بفرض ضريبة الزكاة اقتصاديا، كما شكّل عالما لغويا خاصا به، فكسب الأنصار والمؤيدين وكسّر شوكة المناوئين، كان لهذا كلّ الأثر البالغ في زعزعة دين محمّد، وأحدث رجّة هزّت المرحلة الإسلامية سياسيا ودينيا وعسكريا، ذلك أنّه لمّا "استحرّ القتل في أهل القرى، وثبت مسيلمة، ودارت رحاهم عليه، فعرف خالد أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة".⁴⁸

⁴⁶ - صدق السّلاميّ، المتنبّون في الإسلام المبكر، ص 18

⁴⁷ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 3، ص 282

⁴⁸ - نفسه، ج 3، ص 293

الخاتمة:

لقد أشرنا في مواقع سابقة من هذا العمل إلى أن بحثنا تطرّق إلى موضوع مهمّ تمثّل في ظاهرة التنبؤ في التراث العربي، وقد حاولنا أن نتتبّع هذه الظاهرة تاريخياً وبيان مدى تأثير المجتمع العربي الإسلامي بها إلى درجة أنّها لم تنل حظها من الدرس والتمحيص، بل وقع التقليل من شأنها مقابل التضخيم من الدعوة المحمّدية.

وليس غرضنا من هذا المبحث المقتضب أن نؤيد أو أن ننكر القدرة على التنبؤ أو معرفة الغيب وما يتصل به من مباحث، وإنما أن ننبّه بأن التنبؤ ظاهرة من ظواهر الحياة البشرية، حظّها من البحث العلمي ضئيل بالمقارنة مع الظواهر الإنسانية الأخرى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى "أن البحث في الظاهرة الدينية لم يعد أمراً يحتكره رجل الدين أو العالم به، إذ بات هذا المجال منفتحاً على مناهج العلوم الإنسانية، فكل ظاهرة دينية هي ظاهرة تاريخية تلازم الإنسان ولها وجهها الاجتماعي الذي يتبدّى على السطح".⁴⁹

ومما زاد الأمر أهمية أننا نعالج بعد ذلك أمودجا لعلّه الأهم في حركة المتنبيين، وبيان علاقته بالدين الجديد الطارئ من جهة، ومن حيث تجربته التي حاول تجسيدها من جهة ثانية، وقد بيّنا أن شخصية مسيلمة طرحت جملة من الإشكالات والغموض واللبس حول ظهورها في تلك المرحلة التاريخية الحاسمة، وما أثارته من حراك، سواء من حيث تنبؤها، أو من حيث انتصاراتها العسكرية والسياسية، أو من حيث فشلها وإحباطها وانهزامها، وردود الفعل من السلطة المركزية بالمدينة.

لذلك كانت أقسام عملنا موزّعة على أربعة محاور، خصّصنا القسم الأول للتعريف بمسيلمة، وبيان الاختلاف والتباين في تسميته بين المصادر التاريخية، كما أشرنا إلى مكانته في قبيلته وعصره، وما حفّ به من مؤثرات داخلية وخارجية، كانت حوافز على ظهوره وظهور ظاهرة التنبؤ عامة.

أمّا القسم الثاني، فأثرنا من خلاله جملة من القضايا تتصل بمسيلمة متنبيّاً، فذكرنا أبرز الأسس والمقومات لنبوته من حيث المضامين الدينية بفرعها العقدي والتشريعي، وما أثاره هذا المبحث من أسئلة حارقة، على غرار علاقة محمد بمسيلمة ومواقف كلّ منهما من الآخر، كان ضمن القسم الثالث، ثم بيّنا من خلال القسم الرابع نهاية مسيلمة وما حفّ بتجربته من تداعيات، وقد سبقنا هذه العناصر أهداف أخرى في عملنا، رمنا تحقيقها تعلّقت بمصنّف الطبري وما احتواه من مرويات وأخبار اعتمدها مصدراً مهمّاً لعملنا، وقد توقعنا عند البعض منها بالتحليل والتعليق والنقد.

⁴⁹ - Augé (Marc) *symbole, fonction, histoire : les interrogations de l'anthropologie*, Hachette, Paris, 1979

وانظر صدق السلامي، المتنبيون في الإسلام المبكر، ص 7

وتوصّلنا إلى أنّ الرجل يأبى النقد في منهجيته التاريخية، وأثر الحيطة حيال الأحداث المروية، يُلقى المسؤولية على الرواة الذين ينقل عنهم ويخبر بأخبارهم، من غير أن يعمد إلى الحجّة العقلية والاستنباط والاستخراج وكأنه يقول: وما على الرسول إلاّ البلاغ، دون نقد ولا تمحيص للمرويّ، بل ساقها على عواهنها، وهذا مدعاة للتوقف والدرس والنقد والاحتمال وكلّ الافتراضات جائزة، وهو يدلّ كذلك على أهمية مادة قصص المتنبيين في هذا المؤلف وغازرة المادة المتعلقة بهم، فلقد أثبت هذا المصنّف جملة من الأخبار الثرية والخصبة التي تتصل بحركة المتنبيين، فتفوّق بذلك على الأدبيات التقليدية بمرويّاته المختلفة المصادر والمنابع.

ولا بدّ لنا من التنبيه إلى أننا لا نستطيع التأكيد بأنّ ما نسب إلى مسيلمة من كلام، هو حقّ وصحيح، فمن الجائز أن يكون وضع عليه وضعا. "يقول المؤرخون الإسلاميون إنّه حاول معارضة القرآن بنوع من الكلام المسجوع على غرار الأسلوب القرآني، ولكن ليس من الثابت أنّ هذا الكلام المنسوب إليه هو من كلامه بالفعل، لأنّ النصوص التي يذكرها له هؤلاء المؤرخون أشبه بالهذيان الذي يأبى البحث العلمي أن يصدق بصور مثله عن رجل عربي كانت له في تلك الفترة التاريخية مكانة بارزة في قومه، مكنته من أن يوجد في منطقتة تلك المعارضة القوية للإسلام حتى عهد أبي بكر، حيث أحرز انتصارين على جيوش الخليفة⁵⁰.

كان الناس يقصدون مسيلمة ليسمعوا منه، بعد أن اشتهر أمره، وقد تمكّن من التأثير في بعضهم. فهل يجوز لرجل عاش هذه الحظوة في قومه، وأقبل عليه الناس للإفادة والأخذ عنه، وراسله محمّد، وحارب خالد بن الوليد، ووقف في وجه السلطة المركزية بالمدينة، وانتصر على جيشين في الإسلام، وترعرع في بيئة تميّزت باللغة والفصاحة والبيان وفنون البلاغة، ومن الطبيعي أن يتصف مسيلمة بصفات أهله، أن ينسج لنا نصّا مسجوعا حيناً، رديئاً أحيانا أخرى إلى درجة الفجاجة؟

وقد عُرف مسيلمة بين أتباعه برسول الله، وكانوا يتعصّبون له، ويؤمنون به إيمانا شديدا، ودليلنا ما ذكرته الأخبار التاريخية من بقاء الرجل على قيد الحياة، ولم يتعرض إلى إهانة أو حطّ من بني حنيفة، بل نال حظا في المكانة والجاه والاسم، وإن قُتل فكان من أعدائه وليس من قومه. ولو كان مسيلمة على نحو ما صورته كتب التراث، وخصوصا تاريخ الطبري لما التفتّ حوله بنو حنيفة ولما استماتوا في الدفاع عنه، ولما ضحّى الرّجال بن عنفة، ومحكم بن طفيل وغيرهما بأنفسهم في الدفاع عنه، حتى أنّ منهم من بقي مؤمنا به حتى بعد مقتله، وتغلّب المسلمين على اليمامة.

قد يكون الرجل شقّ طريقه في وسط الدعوة المحمّدية، وقامت بذلك دعوته على التوحيد منذ أن ادعى أنّه الرحمان، وهو جوهر الدعوة المحمّدية، إلا أنّ النصوص لم تثبت إسلام الرجل أو دعوته إلى الإسلام إطلاقا، ولكن تبدو علامات تقاربه حسب ما ذكرته الأدبيات التقليدية في دعوته إلى ربّ واحد، عن جبريل ناقل الوحي،

⁵⁰- مروة (حسين) النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ط6، دار الفارابي، بيروت لبنان، 1988، ج1، ص ص 405-406

وهذا ما يُفسر تقليد منحى محمّد في تقبّل الوحيّ من حيث الكيفية والمصدر، والتغيير الوحيد الذي أحدثه كان يقع في مستوى الشريعة والبعد الطقوسي، مثل إباحة الزنا، والتنقيص في عدد الصلوات بحذف صلاتي الصبح والعشاء، وإلغاء السجود، والتخفيف في الصيام، وتجاوز شعيرة الحجّ، والامتناع نهائياً عن الالتزام بالزكاة، باعتبارها تمثل ضريبة تُثقل كاهل الإنسان، "ذلك أن الحكم على محتوى الأفكار الدينية يتمّ من خلال تطبيقاتها، ولا استناداً إلى بنيتها الظاهرة على مستوى انتظامها، كما أنّ القراءة الطبيعية التصاعديّة لتاريخ المعتقدات، لا يتمّ إلا داخل منظومة التاريخ العام للمعرفة ضمن حلقة التطور وعمق المفاهيم المقدّسة".⁵¹

وصفوة القول، إن درسا ظاهرة التنبؤ في التراث العربي، وتحديدًا نبوءة مسيلمة من خلال تاريخ الطبري، هو موضوع يبقى عويصاً، وإشكالياً يتطلب التمحيص والدرس والبحث، خصوصاً من مختلف المصادر التاريخية للوقوف على تجربته من خلال مقارنتها ولمزيد التأكيد ممّا وصل إلينا من قرآنه، وتظلّ هذه النتائج التي توصلنا إليها وفيّة في ارتباطها بانتسابها إلى المصادر والمراجع المعتمدة. فهل تتغيّر هذه النتائج بتغيّر المصادر؟ وهل يتضاعف الاختلاف، إذا ما اتجهنا صوب المراجع الفرنسية والإنجليزية والألمانية بالخصوص، وهي التي اهتمت بنبوءة مسيلمة وأعطتها قيمة ترقى عن المصادر العربية؟

⁵¹ - le Désenchantement du monde, Une histoire politique de la religion p. 47



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com